من تراثنا العلمي

كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود، في علم ضائع، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

البَيْزَرَة (أو البَزْدَرَة): علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها، وإزالة مرضها، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد، وضعفها فيه — قاله في كشف الظنون

والكلمة معرّبة، وهي من قولهم «بَيْزار» معرّب «بازْدار» و«بازْيار»، أي حافظ البازي وصاحبه، والجمع «بيازرة» كما في التاج واللسان، قال الكُمَيْت:

كأن سوابقها في الغبار ... صقور تعارض بزارها

وجاءت بالدال في قول أبي فراس:

ثم تقدمت إلى الفهّاد ... والبازدار بين باستعداد

قال الشيخ داود الأنطاكي: وغايته اقتناص ما يشق اصطياده واللهو والرياضة، وشرح الصدور، وتسكين نحو الجذام والنقرس والمفاصل لتوالي الفرح، وسكون الغضب الخ

وقد سموه علم البزدرة (أو البيزرة)، إضافة له إلى أشرف أنواعه وأخفها، وهي البزاة

ولخصه في «التذكرة» في مقدمة وثلاثة مباحث:

فالمقدمة في كيفية اهتداء الناس إلى اتخاذ الطيور، وأول متخذ لها، وما هو المعتبر منها

والمبحث الأول في كيفية الاستدلال على الجيّد منها باللون والصفة، وفي ذكر طرق التعليم

والمبحث الثاني في أوقات الارسال وكيفية الصيد، واختلاف حال الطيور

والمبحث الثالث في علامات الصحة والمرض وطب الجوارح

* * *

وقد كان هذا العلم مزدهراً معروفاً أيام عز العرب وازدهار مدنيتهم، ثم ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد، وفقدت كتبه كلها، ونسيه الناس، فلم يكد يذكره أحد ممن ألفّ في تاريخ الثقافة الاسلامية، ولم يبق بين أيدينا من المراجع في هذا العلم إلا هذا الفصل الذي كتبه الشيخ داود الانطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب[1] وكلمة في كشف الظنون للحاج خليفة[2] لاتعدو الأسطر الثلاثة، نقلا عن جامع السعادة لكاشكري زاده، وكلمة في مُعْجَم (دائرة معارف) البستاني تحت عنوان: بزدرة

على أن للمتقدمين كتباً كثيرة في هذ العلم عدّ منها ابن النديم[3] في الفهرست: كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار، وكتاب البزاة للفرس، وكتاب البزاة للروم، وكتاب البزاة للترك، وكتاب البزاة للعرب، وكتاب البزاة واللعب بها لأبي دلف العجلي[4] وسماه ابن خلكان[5] كتاب البزاة والصيد

ومن الكتب المؤلفة في هذا العلم كتاب «القانون الواضح» ذكره في كشف الظنون نقلا عن جامع السعادة لكاشكري

(١) المعروف بتذكرة داود، وهو داود بن عمر الأنطاكي، طبيب ماهر ضرير، لم يكن في زمانه أعلم منه بالطب، ولد في أنطاكية وحفظ القرآن، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات، وأحكم اليونانية، وهاجر إلى القاهرة ونال بها شهرة، ورحل إلى مكة فمات فيها سنة ١٠٠٨ هـ. تصانيفه كثيرة، أهمها التذكرة، وتزيين الأسواق في الأدب، وكفاية المحتاج في علم العلاج، وشرح عينية ابن سينا، وله شعر، وكان يملي ذلك كله املاء

(٢) الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله، كاتب شلبي المؤرخ التركي المستعرب، ولد في القسطنطينية وتقلب في كثير من المناصب، وحج وساح في الأرض، وتوفي في الآستانة سنة ١٠٦٦ هـ وله مصنفات أهمها الكتاب الجليل كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وتحفة الكبار في أسفار البحار، وتقويم التواريخ وغيرها

(٣) محمد بن اسحاق بن يعقوب النديم البغدادي الوراق المتزلي وكنيته أبو الفرج مؤرخ ثقة بحاثة، توفي سنة ٣٨٥ هـ وكتابه الفهرست من أقدم وأفضل كتب التراجم

(٤) القاسم بن عيسى أمير الكرخ وسيد قومه وقائد المأمون، أديب شاعر كريم ممدوح، وله تصانيف منها سياسة الملوك والبزاة والصيد، وهو الذي قيل فيه:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين بادية ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٥

(٥) أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي، المؤرخ الحجة الأديب البارع، وكتابه الوفيات أحسن كتب التراجم وأجمعها وأضبطها، ولد في اربل سنة ٦٠٨ وأقام بمصر مدة تولى فيها نيابة القضاء، ثم تولى قضاء الشام للملك الظاهر، ثم تردد بينه وبين مصر، ودرس في العادلية والأمينية وغيرهما من مدارس دمشق، وتوفي فيها سنة ٦٨١ ودفن في سفح قاسيون

زاده [1] ووصفه بأنه كاف فى هذا العلم ولم يسم مؤلفه

وذكر الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ رضا الشبيبى (وزير المعارف العراقية اليوم) فى مجلة المقتبس [2] أن فى الخزانة التيمورية كتاباً اسمه « القانون فى البيزرة » ولعله هو

وذكر أن من كتب هذا العلم كتاب « أنس اللا بوحش الفلا » تأليف محمد بزمنكلى نقيب الجيش المصرى فى أواخر القرن الثامن ، وهو فى خزانة باريز تحت رقم ٢٨٣٤ ، والقواعد المحبرة فى البيطرة والبزدرة للأنطاكى

وهناك آثار تعمّ الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهى كثيرة منها : كتاب المصائد والمطارد لكشاجم [3] ذكره ابن خلكان فى الوفيات ، وانتهاز الفرص فى الصيد والقنص للشيخ تقى الدين الناثرى ألفه بزبيد سنة ٩١٠ ، ذكره الحاج خليفة فى كشف الظنون وغيرها

وقد تكلم فى طباع الجوارح وأجوالها كثيرون منهم : الدّميرى [4] فى حيـــاة الحيوان . والقزوينى [5] فى عجائب المخلوقات وغيرهما

وفى الأدب العربى أدب للصيد قائم برأسه ، يعرف بالطرديات نبغ فيه جماعة منهم : أبو نواس ، وأبو فراس ، وكشاجم ، والحلى وغيرهم

* * *

(١) أبو الخير أحمد بن مصلح الدين كاشكرى مؤرخ تركى الأصل مستعرب ، ولد فى بروسة وتنقل فى مناصب التدريس والقضاء إلى أن ولى قضاء حلب وكف بصره ، وتوفى سنة ٩٦٨ هـ ، ومن كتبه : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، ومفتاح السعادة والشفاء وغيرها

(٢) العدد الأول من المجلد التاسع الصادر سنة ١٣٣٥ هـ ، وقد كان يصدر للمقتبس مفخرة القطر الشامى أستاذنا الجليل محمد بك كرد على ، وقد صدرت فى مصر ثم فى الشام ، فكانت الحبر الأول من بناء نهضتنا الأدبية والفكرية ، وبمجموعها سجل أدبى لتلك الحقبة ، وكتاب فيه من المباحث العلمية ونفائس آثار الأولين ما لم يتيسر فى غير المقتبس

(٣) محمود بن محمد بن الحسين الرملى المعروف بكشاجم ، شاعر متفنن من كتاب الانشاء ، له « أدب النديم » و « خصائص الطرب » و « المصايد والمطارد » وله ديوان ، مات سنة ٣٥٠ هـ

(٤) محمد بن موسى بن على الدميرى وكنيته أبو البقاء ، باحث فقيه أديب مولده ووفاته فى القاهرة ، كان خياطاً ثم أقبل على العلم وأتقن ودرس فى الأزهر . له حياة الحيوان ، والديباجة شرح كتاب ابن ماجه ، والنجم الوهاج فى شرح المنهاج وغيرها توفى سنة ٨٠٨ هـ

(٥) زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك رضى الله عنه ، مؤرخ جغرافى ، ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق وتولى قضاء واسط والحلة أيام المستعصم العباسى ، توفى سنة ٦٨٢ هـ ، له آثار البلاد وأخبار العباد ، وخطط مصر وعجائب المخلوقات (قال فى الأعلام) وقد ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية

وفى سنة ١٣٣٢ هـ وجد الأستاذ الشيخ رضا الشبيبى بين (نفيسات آثار شتّتها الاهمال ، وطمسها الابتذال ، منبوذة فى ناحية غامضة ، تبذلك سقط المتاع ، ملقلة نالت منها الأرضة والحشرات ، أضعاف ما اقتبسته منها العقول النيّرات . قد علاها من الزبل وسلح الطيور ونحوها ما غير محاسنها ، وأخلق كريم دياجتها) وجد بين هذه الآثار كتاباً فى البيزرة ، وأول شىء فى هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه ، وأنه خالٍ من البسملة والحمدلة ، عار من تقديم مقدمة قبل الشروع فى المقصود ، وعلة ذلك انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة . . . وليس هذا الكتاب مما ألّف للاسكندر الرومى ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه : « كتاب البيزرة صنفه الحكماء المتقدمين (كذا) للملك الاسكندر الرومى ؛ وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لابد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح » ؛ والذى أوقع الوراقين فى هذا الوهم ما ورد فى نحر الكتاب من أن ثقات الروم من أهل المعرفة ؛ ذكروا أن الاسكندر الرومى قال للحكماء المحتفين بخدمته : « أريد أن تعرفونى بطبيعة البازى وأمراضه وعلامة كل مرض ودائه وهل طبيعته تقارب طبيعة الآدمى أم لا ؟ » وأنت تعلم قصور هذه العبارة عما يدعون ، كيف وفى الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين ، ومنهم من صحب الرشيد !! فالكتاب إذن من طرائف عصر عربى راقٍ كما يظهر أيضاً من أسلوب انشائه السهل الممتنع البليغ . ولا يبعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو الرابع للهجرة . يدلنا على ذلك أن المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ أورد فى مروج الذهب عن الجوارح فصلين ترجح — بقول الأستاذ — أنهما منقولان من هذا الكتاب باختلاف يسير

وروى لنا خبير أن فى خزانة باريز كتاباً رقمه ٢٨٣١ بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه : « كتاب الجوارح والبزدرة تصنيف الفيلسوف (أبو) بكر بن يوسف بن أبى بكر ابن حسن بن محمد القاسمى القرشى الدلوى الأشعرى » تاريخ كتابته سنة ٨٤٨ هـ

قاسم هذا الكتاب طبق المحز وأصاب المفصل من الكتاب الماثل أمامى الآن ، لكن لا تزال حقيقة مؤلفه مبهمة مجهولة . هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان ، فى المقالة الأولى ٥٢ باباً فى تاريخ

الصيد بالجوارح وتقسيمها إلى أقسامها وكيفية ترتيبها وسياستها ثم إرسالها إلى غايتها

وفي المقالة الثانية ٦٣ باباً في أدواء الجوارح وعللها وما يتخذ لعلاجها من المركبات لجملة الأبواب ١١٥ باباً في حجم ١٤٥ قاعة أو ٢٩٠ صحيفة صغيرة مخطوطة خطاً واضحاً متأخراً، أغاليطه بخطها العد، وفي آخره: « وقع الفراغ من كتابة هذه البيزرة نهار السبت ١٢ جمادى الأخرى سنة ١٢٠١ من الهجرة على يد ملامط ابن عبد الله الطرفي » اهـ. كلام الأستاذ الشيبي

* * *

أما الكتاب الذي أصفه اليوم فقد وقع عليه صديقنا الوراق العالم الشيخ حمدي السفرجلاني في خزانة قديمة في دمشق فعرف قدره فاشتراه. ثم كانت له قصة انتهت بأن بيع الكتاب إلى أحد المولعين بالكتب القديمة من الأفرنج وبقيت منه النسخة الفوتوغرافية التي أصفها عند الأستاذ السفرجلاني

وكتابنا - وإن لم يعرف مؤلفه - من أقدم الكتب المصنفة في هذا العلم وأجلها. فقد وضع للعزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي العبيدي الفاطمي صاحب مصر والشام المتوفى في الحمام يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ

وكان مُغْرى بالصيد، يصيد بالحجل والجارح من الطير ويصيد بالسباع. وكان مؤلف الكتاب كما يتحدث عن نفسه من بيازرة العزيز والمقربين اليه، وكان غالياً في التشيع لا يذكر العزيز مرة إلا صلى عليه وسلم! ومن قوله وهو يتحدث عن بازٍ: « ولم أرَ في المدة التي لزمت فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة الى أن صنفت كتابي هذا في علم البيزرة مثل هذا البازي على كثرة ما رأيت منها. ولقد وصل الينا في ليلة واحدة مائة باز من الشرق والغرب. فكم تراه يصل في كل سنة محمولاً إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما لم يحمل إلى ملك قبله كثرة وجودة، وكل ذلك أتولى تدبيره، وأمارس تضريته، والاصطياد به الخ »

وقال في آخر الكتاب:

« وقد كان مؤلف هذا الكتاب في جملة البيازرة متقدماً عليهم — لا في جملة واحد منهم لا يحسن شيئاً من البيزرة، ثم أفرده أمير المؤمنين صلى الله عليه عنهم، وله من العمر إحدى عشرة سنة، وعلمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثوب — ثم خرج في صناعته إلى ما قد شاهده الناس وعرفوه، ورقى أمير المؤمنين صلى الله عليه منزلته إلى أن صار اقطاعه عشرين ألف دينار، وبلغ المنزلة التي لو رآها في النوم لما صدقها، فلا يَخْفَ عن الناس ما كان فيه، وما صار إليه »

والكتاب كله من النمط العالي في إنشائه وأسلوبه، وهو مشحون بالفوائد والأخبار الأدبية، والأشعار المستملحة، والقصص اللطيفة، ويقع في ٣٠٠ صفحة مكتوبة بخط قريب من النسخي، قليلة أخطاؤه، مشكول شكلاً لا يعتمد عليه دائماً، فيه إشارات خاصة كانت توضع على الحروف المهملة ثم أهملت[1]، ومقدار المكتوب من الصفحة (١٨ — ١٠) سنتيمتراً، وفيه ١٣ سطراً وفي آخره: « وقد وصينا بما فيه الصلاح لمن انتهى إليه وعمل به، وبالله نستعين وعليه نتوكل

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين، كما هو أهله ومستحقه، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين، وعلى الأئمة من عترته الطاهرين الأخيار وسلم تسليماً »

وبعد ذلك ست صفحات يختلف خطها قليلاً عن خط الكتاب فيها:

باب النفقة على البيازرة وما يصل من أموال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين اليهم في كل سنة

وباب في أحكام الصيد الشرعية وما يحل من ذلك وما يحرم في خمس صفحات في الثلاث الأخيرة منها خرم يصعب معه قراءتها وقد صرّح بأن هذه الأحكام على المذهب الشيعي وعرّض بالمذاهب الأخرى

وليس في أول الكتاب أو آخره ما يدل على تاريخ كتابته ولكني عثرت في وسطه على جملة مكتوبة تحت (باب ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة) بخط الناسخ هذا نصها:

« وكتب هذا الكتاب تاريخ سنة خمسمائة في شهر شوال »

وإذن فيكون عمر النسخة التي نصفها أكثر من ثمانية قرون

هذا وسنعرض على القراء خلاصة أبواب الكتاب، ونماذج منه صالحة في مقالة أخرى، فقد طال بنا نفس الكلام، والله المستعان

علي الطنطاوي

(١) والعلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري رسالة في بيان هذه الاشارات مطبوعة